اسلوب الفكر العلمي

نشوءُه وتطورهُ في مصر خلال نصف قرن

نشوء اساليب الفكر، سواء أكانت علمية ام ادبية، وتغير نزعات الفن، واختلاف السبل التي تنحيها الآمال او تمشي فيها العواطف او تثور من اجلها الانفعالات، كلها منازع لا تدل على شيء بمقدار دلالتها على ان للامم حياة كامنة، تختفي وراء الظواهر الاجتماعية التي نقع آثارها تحت حسنا - على اننا ان مضينا في بحثنا هذا مؤمنين بأن لاساليب الفكر نشوءاً وان لنزعات النفس مناهج لتغير وتحول، وان للآمال التي تجيش في الصدور والعواطف والانفعالات التي تتلهب بها المشاعر مناحي خاصة لا تتبدل ولا تثبت على حال، فانما نمضي في ذلك مقتنعين كل الاقتناع بان للاساليب الفكرية وما اليها من مظاهر الحياة الكامنة حياة تنقضي، كحياة الافراد، وان نشوءها وتطورها خاضع جبد الخضوع لسنن الحياة وان كان من الصعب ان نعرف من حقيقة تلك السنن شيئاً او نستبين من خوافيها امراً

تتكون الحياة الكامنة في الامم من مجموع تلك «الآمال الغامضة المبهمة التي تجيش في صدور الآلاف المؤلفة من ابناء آدم وهم عاجزون على اقناع شهرتها او التعبير عن حقيقتها، والسقطات والهزائم التي تمرُّ في عالم الحياة من غير ان يعرفها احد أو يهتم بها انسان، والرغبات التي تعيش في صدور الناس ممتدة في سلسلة من التواصل والتتابع غير متناهية، او تتشكل في صورة ما من صور حياتهم، والمحاولات التي يتشبث بها الناس ابتغاء الوصول الى حل المشكلات العملية التي يمليها الطبع عليهم، او تبعث بها الحاجة في النفوس، وتلك الساعات الطويلة التي ينفقها محبو العلم سدى، حيارى في الوقوف على اسرار الطبيعة — جماع هذه المجهودات المخبوءة وراء استار الحياة، هي التي تكوّن ذلك الهيكل الذي نسميه «فكر الامة»، ولا يطفو منهُ ظاهراً على سطح الحياة الا جزء ضئيل يبرز في صور من الادب او العلم او الشعر او الفن او المخترعات المادية»(١)

اذن ففي مشاعر الناس وآمالهم وانفعالاتهم وعواطفهم، وفي اعماق تصوراتهم يجب

(١) راجع الاستاذ مرنز في مقالة نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر من ١٥ و١٦ من الطبعة العربية

عليك أن تتغلغل مسترشداً بمصباح ديوجينيس[١] لتفتش في تلك الاغوار عن ضالتك، اذا اردت ان تتكلم في اساليب الفكر او تعبر عن شيء من اسرار الحياة الكامنة في تضاعيف الامم، على انك لا محالة عاجز عن ان تبلغ من التغلغل في صميم تلك الاغوار الى نهاية تلتمس فيها الحقيقة العلية، او تبلغ عندها الى الاسباب التي تحرك الجماعات وتقسرها على ان تتبع من الحياة طريقاً ما

من هنا نعلم علماً حقاً ان الوقوع على نقطة ابتداء نبدأ منها سفرنا في تقصي الاسباب التي تغير من اساليب الفكر امر بعيد منالهُ ان نحن بحثنا وراءهُ في حياة الامم الكامنة. لهذا يجب علينا ان نرجع الى ظواهر الحياة الملموسة لنتخذ منها نقطة ابتداء نتقصي بها شيئاً عن الوجه الذي يمشي فيهِ الفكر، وان ندرس الاسباب الظاهرة التي حدت بالجموع البشرية الى اتباع سبيل دون غيرها او الاستقامة لفكرة او مذهب او مبدأ. ومن ان نتصور يوماً ان في مستطاعنا معرفة الاسباب الحقيقية المستترة وراء تلك الظواهر

«خصّت بعض عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة، وحوادث عظيمة امتصت كل القوى العاملة النشيطة، واندمجت فيها كل العناصر العقلية والتخيلية، حتى انك تجد ان تلك الحركات قد مضت مستبدة بامرها إما لتخضع كل القوى المنبعثة في عصر ما للعمل في سبيل ابراز غرض معين، او لتثبت فكرة بذاتها، وإما ان تلقيها وقد جرفت امامها كل شيء الى جو من التنازع والجلاد، يوجه بكل ما فيهِ من مختلف الصور والقوى الى تزكية الحادث الرئيسي الذي تلتف من حولهِ قوة الفكر والعناصر. والامثال التي يوردها التاريخ كثيرة منها تلك القرون الطويلة التي يقص اخبارها تاريخ اليهودية، والعصور الاولى التي أينعت فيها الكنيسة النصرانية، والزمان الذي تقشعت فيهِ عن المدنية سلطة اللاهوت، وزمان الاصلاح البروتستانتي، وعهد الثورة الفرنسوية»[٢]

في مثل هذه العصور لا يعوزك البحث ان تصت نفسك باحثاً وراء نقطة ابتداء ترتكز عليها وتتخذها لبحثك اساساً. في حين انك تمر على قرون أخرى من الزمان مرّاً سراعاً فلا تجد فيها من حادث يلتئم من حولهِ الفكر او الاشخاص يجذبون بقوة عقولهم او ثورة مشاعرهم او قوة انفعالاتهم او تأجج عواطفهم عقول الناس حول فكرة او مذهب او مبدإ تتخذ منهُ نقطة ارتكاز ترتكز عليها. قد تعجز عن ان تجد نقطة ارتكاز ترتكز عليها في عصر برمته

(١) فيلسوف يوناني من المدرسة الكلبية Cynics كان يمشي في وضح النهار ويده مصباح منار فاذا سئل عن ذلك اجاب افتش عن انسان (٢) عن مرتز

من عصور التاريخ . وقد تعجز عن ان تقع على ذلك في تاريخ امة ، وقد تفوز بامنيتك في تاريخ امة اخرى . فهل تقع في تاريخ مصر الحديث ، لا في تاريخها القريب منذ نصف قرن ، بل منذ قرن ونيف من الزمان ، منذ ان غزا نابليون ارض مصر الى اليوم ، على حادث التأم من حوله الفكر التئاماً يكفي لان يغير من اساليب الفكرة العلمية او الادبية ؟

لم يترك فتح نابليون لمصر من اثر بين في تغير اساليب الفكر . فقد وطئت اقدام الجيش الفرنسوي مصر وتركتها واهل مصر في غفوة من كهف الزمان ، بل في اعمق غفواته ، ما تحركت فيهم شاعرية ولا انفجر فيهم انفعال ولا اهتزت لهم مشاعر

لا يعوزنا لاثبات هذه النظرية من دليل . فان اكبر علماء الازهر ، كانوا اذ ذاك اكبر عون لنابوليون وتحقيق مطامعه ولم يهتز في مصر عرق ولا نبض لها قلب . السبب في كل هذا ان الحياة الكامنة او الفكر الكامن كان اذ ذاك مفكك الاوصال مشتت العناصر ضعيف الاثر ، فلم يلتئم حول فكرة معينة او مبدإ بذاته فيشع بقوة التئامه على تلك العقبة التي تصده عن الانصراف في السبيل التي تخطها له الطبيعة

كذلك لا نستطيع ان نتخذ من عهد محمد علي الكبير نقطة ارتكاز قد يقال فيها انها السبب في تغير اسلوب الفكر في مصر . فهنالك سيقت الجماعات المصرية سوقاً نحو غايات لم تعرف يوماً انها مسوقة في سبيلها ولم تشعر بما ينتظرها وراء تلك الغايات من المقاصد التي كانت تجول في رؤوس زعمائها . تجد هذا جلياً واضحاً ، لا في غزوات الجيش وحده ، بل في ميدان العلم والمعرفة . فان ذلك العهد على كثرة ما اخرج من نوابغ المتعلمين الذين اوفدهم المصلح الكبير الى اوربا لم يخرج شخصاً واحداً استطاع ان يجمع شيئاً مما بددته مظالم الحكومات السابقة من قوة الفكر الكامن في المجتمع المصري حول غاية ما

فاذا تركنا الحوادث التي انتابت مصر في اواخر القرن التاسع عشر ورجعنا الى الاشخاص لم نقع في طول ذلك العهد على مصري واحد استطاع ان يحرك كوامن الفكر ويجمع شتاتها حول مذهب او مبدإ ما . ولكننا نقع على رجل واحد خرج من جوف آسيا ليلعب على مسرح مصر دوراً نستطيع اذا تبينا طبيعته ان نقع فيه على نقطة ارتكاز نرتكز عليها . على اننا لا نمضي في ذلك البحث قائمين بان ما احدث ذلك الزعيم من اثر هو نقطة ارتكازنا ، بل طبيعته نزعة في تمثيل القديم الذي لا يزال قائماً بيننا بكل ما اوتي من قوة التقليد وحكم العادة ، هي التي نستطيع ان نتخذ منها نقطة ابتداء ننظر من ناحيتها في تغير اساليب الفكر العلمي في مصر ، ان جاز لنا ان نقول بأن في مصر فكراً علمياً وان له اسلوباً تعير او تبدل

السيد جمال الدين الافغاني هو ذلك الزعيم . وهو لا يمتاز على غيره من زعماء المتدينين الاَّ بانهُ اراد ان يتخذ من قوة الدين سبيلاً للتأثير السياسي والدعوة السياسية القائمة حول فكرة استقلال الشعوب الاسلامية ، واعداد العدة لمقاومة النفوذ الاوربي في الشرق الاسلامي

تعلَّم السيد جمال الدين الافغاني مختبَر الاساليب العلمية الدقيقة التي عكف عليها العرب منذ القرون الوسطى . فهو بذلك صورة مصغرة او مكبرة لمصر من العصور البائدة في تاريخ الفكر . وهو بنزعته السياسية اشبه الاشياء في عصرهِ بالمباحث الحقيرة التي نعيش بينها بجثتها وان رجعت في تاريخها الى ابعد العصور ايغالاً في احشاء الزمان . لهذا نرجع بانظارنا الماماً الى نزعات العرب العلمية التي مثَّلها السيد الافغاني في القرن التاسع عشر لنتخذ من ذلك سبيلاً الى المقارنة والاستنتاج

السيد الافغاني ورث العرب بحق في علومهم وفلسفتهم . وقف من الرقي الفكري حيث وقفوا . وقف عند النظر الغيبي . فكان في كل ما دبجت يراعتهُ أو تحرك بهِ لسانه مثالاً حيًّا لما اختلط من مباحث آبائهِ ولما تناثر خلال كتبهم من مختلف الابحاث ، وما تضمنت مجلداتهم من متنافر الوضع الذي اتصفت بهِ تآليفهم . وحدَّ النظر الغيبي الذي انتهى عندهُ العرب جدير بابراز امثال ما ابرزوا من كتب اختلط فيها العلم بالفن ليخرج من مجموعها ثلمة في عنوان على ما بلغ الفكر الانساني من تهوش واضمحلال في القرون الوسطى

اذا كان ناموس جاذبية الثقل اعظم استكشاف وصل اليهِ العقل البشري في عالم الكون والفساد ، فان قانون « الدرجات الثلاث » الذي كشف عنهُ الفيلسوف الكبير « اوغست كونت » اكبر استكشاف وصل اليهِ العقل البشري في الطبيعة الانسانية . وان متابعتنا لشرح هذا القانون هي النواة التي تدور حولها ابحاثنا . لذلك نتابع الكلام فيهِ بايجاز اتمامًا لفائدة البحث

إنَّ درس الادراك الانساني من كل نواحيهِ ، وخلال كل الازمان ، يدلنا على وجود قانون ضروري يخضع لهُ العقل ، نستبينهُ من حقائق النظام الاجتماعي ، والتجاريب التاريخية الثابتة . فان كل فكراتنا الاولية ومدركاتنا ، وكل فرع من فروع معرفتنا ، لا بد من ان يمر على التوالي في ثلاث حالات مختلفة . الاولى اللاهوتية او التصورية التخيلية . والثانية الميتافيزيقية الغيبية ، او المجردة . والثالثة اليقينية الواقعة . هذا هو قانون الدرجات الثلاث . و يمكننا ان نحصر القول في هذا القانون بان العقل الانساني

فيه بطبيعته كفاءة لان ينتج ثلاث طرق للتأمل من حقائق الاشياء . وطبيعته في كل من تلك الطرق تختلف عن الاخرى تمام الاختلاف. بل اننا لا نبالغ اذا قلنا انها تتضاد تمام التضاد . من هنا ينتج ثلاثة ضروب من الفلسفة او بالاحرى ثلاثة اساليب للتفكير في اكتناه حقيقة الظواهر ، كل منها تناقي الاخرى . اما الاسلوب الاول فخطوة ضرورية يبدأ بها العقل في سبيل تفهم الحقائق او البحث عن مصادرها . واما الاسلوب الثالث فيمثل العقل في آخر حالات ارتكازه على الحقائق البارزة الملموسة. وليس الاسلوب الثاني الا خطوة انتقالية تتوسط بين الاسلوبين

اما العقل في الدرجة اللاهوتية فانه يبحث في طبيعة الاشياء وحقائقها ، وسيء الاسباب الاولى والعلل الكاملة ، يبحث في الاصل والماهية والقصد من كل الاشياء التي تقع تحت الحس . وعلى الجملة يبحث في « المعرفة المطلقة » وهناك يفرض او يسلم بان كل ظواهر الطبيعة ترجع الى الفعل المباشر الصادر عن كائنات تخفي وراء الطبيعة المرئية

أما في الدرجة الثانية ، اي في الحالة الميتافيزيقية الغيبية ، وهي ليست الا صورة معدلة عن الدرجة الاولى ، فان العقل يستبدل فرض الكائنات السائدة على الطبيعة ، بفرض قوات مجردة او شخصيات محققة الوجود في نظره ، في مستطاعها احداث مختلف الظواهر . وليس ما يعنى في هذه الدرجة من تفسير الظواهر الا نسبة كل منها الى مصدرها الاول

اما في الدرجة الاخيرة ، وهي الدرجة اليقينية ، فان العقل يكون قد اطرح طريقة البحث العقيم وراء الاسباب المجردة ، واصل الوجود الكوني ومنقلبه ، والعلل الاخيرة التي تعود اليها الظواهر ، والقى بجهوده في سبيل معرفة السنن التي تحكمها . هنالك يتحد العقل والمشاهدة ، ليكونا اساس المعرفة . فاذا تكلمنا في هذه الحال في تفسير حقائق الكون ، فلا نخرج عن ايجاد صلة بين ظاهرة من الظواهر ، وبين مجموعة من الحقائق العامة التي يقل عددها تدريجيا بحسب تقدم العلم اليقيني

فاذا نظرت بعد هذا فيما ابرز العرب من نتائج الفكر ، من علم او ادب او فلسفة او فن ، وجدت ان فيها من آثار التخلخل والتشعب ما هو جدير بان يبرز في عصر عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغيبي لم يعدها الى طريقة التحليل والنقد . ذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلها المترجمون ، وجلهم من النساطرة واليهود ووثني حرّان ، عن اليونانية . ولكنك لا تجد عندهم مدارس فلسفية ينسب اليهم ابتكارها . فليس لهم

مدرسة تعزى الى الفارابي او ابن رشد او ابن سينا مثلاً . بل ان ابن رشد على الاخص لم تصح له مدرسة تعتنق مذهبهُ الفلسفي الذي ذهب اليه في تفسير ارسطوطاليس وتشيد بذكره وتذود عن حياضه ، الاَّ بعد ان انتقلت كتبهُ الى جامعات اوربا في القرون الوسطى . فالمذهب الفلسفي ظل رأياً فردياً عند العرب ، وانقلب مدرسة فلسفية في اوربا عند بدء نهضتها العلمية ، بل ان شئت فقل عند بدء عكوفها على الاسلوب اليقيني . ذلك فرق جلي بين درجتين معينتين يمر بهما العقل الانساني . الدرجة الفيبية والدرجة اليقينية

وقد يخطئ بعض الناس اذ يقولون بان للسنيين او للاشاعرة او المعتزلين مدارس فلسفية . إن جماع هذه وما يجري مجراها مذاهب لاهوتية استعانت بالفلسفة وبعض ضروبها دون بعض ، على بث افكارها . وقد يصح ان يكون من افرادها من غلب عليه النظر الفلسفي . فواصل بنُ عطاء مثلاً قد نعتبرهُ مجدداً من جهة ما يدعو اليه من حرية الرأي واتباع ما يرشد اليه العقل في النظر العلمي والفلسفي والديني . ولكن مدرسة المعتزلين ، ان صحَّ ان تدعى مدرسة بحق ، ترجع في اصلها ونشأتها الى النظر الديني المشوب بالفلسفة ، اكثر من رجوعها الى الفلسفة الصرفة . وكذلك الباطنيون — «المتصوفون» — قد نقول انهم فلاسفة يقولون بوحدة الوجود ، كما كان يقول الذين اخذوا هم عنهم من الفرس واساتذتهم اصحاب الافلاطونية الجديدة في مدرسة الاسكندرية ، ولكن لم يكن لاحدهم مدرسة تنسب اليه ذاع رأيها وكان لها اثر في تطور الفكرة الفلسفية في المجردات خلال عصر من العصور

وانك لو نظرت نظرة اخرى في المؤلفات العلمية الصرفة عند العرب لوجدتها قليلة، اللهمَّ الاَّ بعض اقسامها في الطب والكيمياء وخصائص النباتات . وهي مؤلفات وسمت بطابع لا تراهُ يختلف كثيراً عن الطابع الذي وسمت به مؤلفاتهم في فروع المعرفة التي كانت ذائعة لعهدهم . كذلك اذا نظرت فيما كتبوا في النبات او الحيوان ، تجد ان المؤلف إن تحرر من الخلط بين فروع من التاريخ والادب ، لم يتخطَّ حد الوصف . فمن الكلام في صفات النبات او الحيوان الى نفعه في الطب . وهنالك بعض مؤلفين ارادوا أن يوسعوا في دائرة تآليفهم فتناولوا الكلام في خصائص النباتات السحرية او الطلسمات ونفعها في التمائم وتفسير الغيب، بل تراهم في حين آخر قد مزجوا بين الفلسفة والفن فوضعوا الموسيقى في الفلسفة اعتماداً في الغالب على كلمة نقلت اليهم عن فيثاغورس لدى قوله « العالم عدد، العالم موسيقى »

هذه العقلية بذاتها هي التي ورثها السيد الافغاني عن العرب . عقلية وقفت عندحد الاسلوب الغيبي لم تتعده ، وتنكبت كل سبيل كان من الممكن ان يصل بها الى الاسلوب اليقيني . ولقد كان من السهل الهين ان يستطيع السيد الافغاني ان يجمع ما تبدد من قوى الفكر حول هذا الاسلوب كما كان من المتعذر ان يجمع قوة الفكر حول مبدإ جديد في العلم او الفلسفة تلتئم من حوله شعب المجتمع المبددة لتدفع بقوتها نحو غاية ابعدمدى مما انتهت اليه افكار آبائهم . لهذا نقول ، ونقول بحق ، ان ما استجمع السيد الافغاني من عناصر الفكر القديم القائم على الاسلوب الغيبي قد ناء بجماعه على تلك النواة الحية التي كانت تجمع حول الاسلوب اليقيني في افكار الامة فلم تقوَ على محوها ولكن عاقت خطاها ولا تزال تعوقها عن الانبعاث في سبيل الحرية الصحيحة . إذن فاثر السيد الافغاني في حياة الفكر في مصر وان شئت فقل في الشرق أثر سلبي صرف ، لا يذكر في تاريخ الفكر الأ كأداة رجعية تلقت الجماعات قوة صدمتها باسلوب حديث ، هو الاسلوب اليقيني والنزعة الاثباتية ، لتنكب بهما سبيل الغيب ، لتتبع سبيل الشهادة

على ان قوة ذلك الاسلوب الرجعي لا تزال قائمة بقوَّومها ومعاولها . ولكنها تهدم ما تحت قدمها وتقطع بمعولها الجذع الذي ترتكز عليه قدماها لتنهار في النهاية وتذهب بدداً . فالمدرسة القديمة قائمة بين ظهرانينا تتبع سبيل النظر الغيبي بل غالب ما ترجع سعياً الى النظر اللاهوتي . ذلك في حين ان المدرسة الجديدة اخذت تبني على النظر اليقني اساس نهضة كبرى سوف نرى عما قليل بوادرها تتجلى لاعيننا ظاهرة من وراء حجب الغيب الكثيفة

***

طالما سمعنا من الذين لا يقوون على إتمام النظر طويلاً في مقدمات الاشياء ونتائجها ان الثورة العرابية بدء نهضة فكرية حديثة وان ثورة ١٩١٩ قد تمدت حد البدء بنهضة لتكون خاتمة تطور عظيم في الافكار لا في ميدان السياسة وحدها ، بل في عالم العلم وميدان الاقتصاد . على اننا لا نسوق أنفسنا مع الذين يسوقون أنفسهم في هذه المغامرة الوعرة المتعسرة ، حذر ان تطوح بنا اقدامنا في رمالها اللينة التي تبتلعنا غير شاعرين الأ بليونتها ونعومة ملمسها . فان مواجهة الحقائق على خشونتها لأقوم طريقاً واهدى سبيلاً . ان نظرة واحدة في الثورة العرابية كافية لان تثبت لنا ان هذه الثورة ، كثورة ١٩١٩ ، لم تمس من الحياة الكامنة في الامة شيئاً ، وانها لم تتناول الأ ظاهر الحياة بآثار سريعة الزوال ، كتلك الآثار التي تخطها يد الصبية فوق الرمال على شاطىء البحر ، يكفي للذهاب

بآثارها مدّ موجة واحدة من موجاتها

لم نتناول الثورتان شيئاً من تلك القواعد التي ترتكز عليها الحياة الكامنة في أغوار عقلية الجماعات . فان اتجاه الفكرة في الثورة العرابية نحو المساواة بين فئتين من ضباط الجيش ، وانطلاق لهيب التحطيم والهياج في الثورة الاخيرة لفاهةٌ و بلا سابقة، ظاهرتان تكفيان وحدهما لاثبات ما نذهب اليه

قامت الثورة الفرنسوية على دعاية الانسيكلوبيذيين ، ديدرو واصحابه ، لاسيتر وهولباخ وهلفيتوس ، وعلى عقد روسو الاجتماعي ، وعلى آداب ڤولتير الوضاحة ، بل على مجهود سلسلة من العظماء تعهدوا الفكر الكامن في طبقات الامة المنتقاة منذ عهد ديكارت بتلك الفكرات الثابتة التي يذهب اثرها الى أبعد اغوار الحياة الخفية في نفس الافراد والجماعات ، فاخذت عناصر الثورة تتكون في الفترة ما بين ١٥٩٦ الى سنة ١٧٨٩ اي منذ ان تنفس ديكارت نسيم هذه الحياة الى اليوم خرج فيه اهل باريس يصيحون الى السلاح — الى السلاح

استُجمعت عناصر الثورة الفرنسوية في قرنين من الزمان دأبت فيها الجامعات على بث المذاهب العلمية والفلسفية ، وقام فيها فحول من الرجال اعطوا للجماهير أرقى المثل ، كما تحكم في رقاب الشعب المستنير لحكم الفرد ، مستبدون تعهدوهُ باقسى المثلات

وما انت في كل ذلك ، إن اردت ان تضع تاريخاً صحيحاً ، بناظر الى عدد المتعلمين. فمن الجائز ان يكون في مصر اليوم من المتعلمين عدد يربي على عدد المتعلمين في فرنسا عندما قامت بثورتها ، او على عددهم في انجلترا عندما انتزع زعماء الشعب وثيقة الماغنا كارتا من يد الطاغية المستبد . فان المسألة هنا مسألة كيف لا مسألة كم . انظر في القواعد التي قامت عليها ثورة فرنسا ثم انظر في القواعد التي قامت عليها اية حركة من الحركات الضئيلة في مصر فانك هنالك تتبين الفرق جلياً ، بين حركة اساسها نهضة ادبية فكرية تكوّن عناصرها ، و بين حركة قائمة على لا شيء. على ان الحركتين قد تتفقان من حيث نبالة القصد وسمو المبدإ . ولكننا نقيس هنا بين الآثار التي تخلفهما كلتيهما لا بين الاسباب الباعثة عليها

***

لقد مضينا حتى الآن نفتش في جنبات التاريخ المصري الحديث على حادث يلتئم من حوله الفكر لتتخذهُ نقطة ابتداء نبدأ منها ، و يكون في ذاته سبباً في تغير اساليب الفكر

في مصر . ولا مشاحة في اننا اخفقنا فيما صبونا اليهِ حتى الآن

على انك اينما وليت وجهك في تاريخ مصر الحديث وقعت على آثار نهضة ادبية علمية تشربت الروح الحديثة في البحث ، وسعت جادةً في سبيل المكافأة بين قوة الذكاء الكامنة في حياة الشعب الفردية والاجتماعية و بين حاجات العصر الحديث . فهل شبت هذه النهضة بلا بذر كالطفيليات ؟ ام كان لها اساس من الجهد المشترك ، ودعامة من جهود الافراد ؟

إن عجزنا عن ان نقع على حادث يلتئم من حولهِ الفكر في ثمانية العقود الاولى من القرن التاسع عشر في مصر ، ومعتقدنا في ان الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ لم تمسَّ الاَّ ظاهر حياة الامة ، كلاهما يسوقنا الى البحث وراء السبب الحقيقي الذي قام عليهِ ما تدعوهُ « نهضة العلم والادب » كما يقول بعض الكتَّاب وأن كنا لا نجاريهم على صلاحية هذا الاستعمال الاَّ تجاوزاً

اما اذا رجعنا الى نهضة الصحف والمجلات العلمية والادبية فاننا نقع في مصر على عصر شبيه بالعصر الذي بدأت فيهِ نهضة المجلات الادبية في اوائل القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر . فان العصرين يتشابهان كثيراً . على اننا لا نستطيع ان نمضي في هذه المقارنة ، او نخرج من سلب هذا المقال كتابةً . الاَّ ان هذا لا يحول بيننا و بين القول بأن تطور الفكر العلمي في مصر كان اكثر تأثراً بالمجلات منهُ بالجرائد السياسية . فالمجلات ذوات الخطر الاول فيما نحن من تقدم تدعوهُ « نهضة العلم والادب » . المجلات وحدها هي التي اخذت بيدنا وافسحت امامنا سبيل الخوض في عباب الاسلوب اليقيني الحديث ، وهي التي قادت دفة الفكر في مصر وهو يجتاز بحر الاسلوب الغيبي العميق لتكيف « النهضة » على صورة بددت سحب الحياة القديمة بما فيها من ظلمات الفكرة المجردة ، لتكشف لنا عن شمس الاسلوب اليقيني الذي لم يصل الينا من اشعتها الاَّ قدر ضئيل

على انك لا تقع في كل هذا على حادث يلتئم من حولهِ الفكر . غير اني اتوقع ، وعسى ان يكون ذلك قريباً ، ان الخطوة التي خطوناها في سبيل الخروج من ظلمات الاسلوب الغيبي الى وضح الاسلوب اليقيني ، سوف تقودنا سعياً الى ميدان يتصادم فيهِ الاسلوبان تصادماً يثير في جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الاسلوب الغيبي وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمهُ ، وتترك الاسلوب اليقيني قائماً بهامة الجبار القوي الاصلاب مشرفاً على الشرق وقد هبَّ من رقاد القرون ليسير في الدرب الذي مهدت سبلهُ للانام نواميس النشوء والارتقاء

يوقين اسماعيل مظهر